جَـهِـلَ الـهَـوى حـتّـى غـدا فـي أسْـرهِ والـــحـــبُّ مـــا لِأسـيـــرهِ إطـــلاقُ

وكلّها غرر لولا ما كدَّرها به من ثلب الأعراض المصونة أعراض خير القرون. ولما ارتفعت درجته عند الإمام المهدي أحمد بن الحَسَن، وكان كالوزير له قبل الخلافة، وتصدَّى للقعود في دستها (توفي) في شهر صفر سنة ١٠٧٩ تسع وسبعين وألف، فيكون عمره إحدى وثلاثين سنة. ولو طال عمر هذا الشابّ الظريف ولم يشب صافي شعره بذلك المشرب السخيف، لكان أشعر شعراء اليمن بعد الألف على الإطلاق. وأصله من قرية بني الهبل، وهي هجرة من هجر خولان، ومحلُّه ومحلِّي واحد، ليس بينهما مسافة، بل بينهما من القرب بحيث يسمع كل واحدٍ ممن فيهما كلام الآخر. وقد بالغ صاحب نسمة السحر في حقّه فقال: إنه لم يوجد باليمن أشعر منه من أول الإسلام، وهذا معلوم البطلان، فالصواب ما قلته سابقاً.

(١٣١)

(الحَسَن بن عليّ بن الحَسَن بن عَليّ ابن عبد اللَّه بن عبد الرَّحمن بن صَالح بن مُحمَّد بن صَالح ابن مُحمَّد بن يَحْيَى بن مُحمَّد بن أحمد بن يَحْيَى ابن أحمد بن حَنَش)[١]

وبقية نسبه معروفة فله سلف صالح فيهم العلماء والقضاة والصلحاء، وبينهم مشهور في الديار اليمنية. (ولد) بشهارة في سنة ١١٥٣ ثلاثٍ وخمسين ومائة وألف، ورحل من وطنه لطلب العلم إلى مدينة صنعاء، فأخذ عن جماعة من أعيانها كالسيد العلَّامة مُحمَّد بن إسماعيل الأمير في الحديث، والقاضي العلَّامة أحمد بن مُحمَّد قَاطِن، قرأ عليه في «مغني اللبيب»، ورسالة الوضع للهروي، وغيرهما. والسيد العلَّامة إسْحَاق بن يُوسُف بن المُتوكّل، قرأ عليه في المعالجة، والقاضي العلَّامة أحمد بن صَالح بن أبي الرَّجال في العربية، والقاضي حُسين بن محمَّد المغربي في شرح «بلوغ المرام». وشيخنا العلَّامة عليّ بن إبراهيم بن عَامر، وقرأ عليه في «غاية السؤل» وشرحها، وسيرة الشامي، وشيخنا العلَّامة الأكبر السيد عبد القادر بن أحمد، قرأ عليه في «جامع الأصول» لابن الأثير، وغيره، وولده العلَّامة إبراهيم بن عبد القادرِ، قرأ عليه في «الغاية» وشرحها، وفي «صحيح البخاري». وقرأ القراءات

(١) ترجمته في: الأعلام: ٢/٢٠٦.

السبع على شيخها المتفرد بمعرفتها الفقيه علي اليدومي. وأول من اتصل به عند وصوله إلى صنعاء الفقيه إسماعيل بن مُحمَّد حَنَش، وقرأ عليه، وأعانه على الطلب. وولي في أوائل عمره أعمالاً من وقف وغيره، ثم أمره مولانا الإمام المهدي أن يتصل بولده مولانا خليفة العصر المنصور باللَّه حفظه اللَّه ليقرأ عليه، فاتصل به وقرأ عليه ولازمه مدة. ثم لما مات الإمام المهدي وبُويع مولانا الإمام المنصور باللَّه أناط بصاحب الترجمة أعمالاً وصيَّره أحد وزرائه المقربين عنده، وجعل بنظره بعض البلاد اليمنية، وبالغ في تعظيمه لكونه شيخه في العلم، ولم يعامله معاملة سائر الوزراء. وإذا ناب الدولة أمر يتعلق بالأمور الشرعية كان التعويل عليه في الغالب. وغالب ما يتحصل له ينفقه على العلماء، ويواسي به الفضلاء الفقراء على وجهٍ لا يحب أن يطلع عليه أحد، وما زال هذا دأبه وديدنه من أول وزارته إلى حال تحرير هذا نحو ثلاث وعشرين سنة، وهو لا يزداد، إلَّا خيراً وإنفاقاً على مَنْ يستحق ذلك، وهو في هذه الخصلة منقطع القرين عديم النظير، لا سيما في هذا العصر، فإنه قد يعطي بعض المحاويج الذين لا يتصلون به عطاءً يجاوز الوصف في الكثرة، ويشتري البيوت ويهبها لمن لا بيت له، ويعين من أراد أن يشتري بيتاً إذا كان مستحقاً بِأَكْثَر الثمن أو كلّه. وقد صنع هذا الصنع مع أناس كثيرين، وهو يكره ظهور ذلك واطلاع الناس عليه، وذلك دليل الخلوص. وإني لأُكثر التعجب من كثرة صدقاته التي منها ما يبلغ المائة قرش وفوقها ودونها، بل أخبرني بعض العلماء أنه اطلع على ما وهبه لبعض العلماء، وكانت جملته ألف قرش دفعة واحدة. وأخبرني آخر أنه بلغ إعطاؤه لعالم آخر اثنتي عشرة مائة قرش دفعة واحدة. وناهيك بهذا فإن عطاء الملوك في عصرنا يتقاصر عنه. ويزداد التعجب من استمراره على ذلك كيف قدر على القيام به مع أن غيره ممن بنظره أعمال أكثر من أعماله ومدخولات أوفر من مدخولاته قد لا يقوم ما يتحصل له بما يستغرقه لخاصة نفسه وأهله فضلاً عن غير ذلك. ثم أذكر قول اللَّه تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩]، وقول النبي ﷺ: «**أنفق ينفق عليك**» فأعلم عند ذلك السبب، ومع هذا فهو في عيش فائق مُترفِّه في ملبوسه ومأكوله ومسكنه ومركبه وجميع أحواله على حدٍّ يقصر عنه أمثاله، قد جمع اللَّه له من نعم الدنيا ما لا يدركه غيره، وأعطاه من الكمالات ما لا يوجد مجتمعاً في سواه، فإنه مع إحكامه لما يتعلق به من الأعمال الدولية معدود من العلماء، مذكور في الفرسان، مشهور بحسن الرماية، جيد الخطّ، قوي النثر، حسن الأخلاق. وكان بشوشاً متواضعاً سَيُوساً جليّاً وقوراً ساكناً عفيفاً مواظباً على الجمعة والجماعة، كثير الأذكار محبّاً للفقراء، ولا سيما إذا كانوا من أهل بيت النبوة راغباً في الخير كافّاً لنفسه عن الشرِّ مُعظماً للشرع. مجالسه مشتملة على المباحثات العلمية والمفاكهات الأدبية مُقرِّباً لأهل الفضل، مبعداً لأهل البطالة، حسن المحاضرة، قوي المباحثة، جيد الفهم، حسن الإدراك، ينشط إذا سُئل عن مسألة علمية، ويبحث ويستخرج بدقيق ذهنه فرائد بديعة.

يعرف النحو والصرف والمعاني والبيان والأصول والقراءات والتفسير، ويعمل بجميع هذه الفنون. وله كمال الاشتغال والعناية بعلم الحديث والتفسير والعمل بما تقتضيه الأدلة ولا يبالي بما عدا ذلك. ولديه من الكتب النفيسة ما لا يوجد عند غيره. وبيني وبينه من خالص الوداد ما لا أقدر على التعبير عن بعضه، وما أعدُّه إلّا بمنزلة الوالد، وهو ينزلني منزلة الولد، ويجلّني إجلال الوالد. وقد اتفقت الألسن على الثناء عليه ونشر محاسنه، مع أن الناس لا يرضون عن المتعلقين بأعمال الدولة، ولكن رأوا فيه من المحاسن ما لا يمكن جحده. والحاصل أنه للدولة جمال، ولأهل العلم جلال، وللفقراء ذخيرة أفضال، طالت أيامه ومدت أعوامه. وفي سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف حصل له نسيان وكثرة سهو، فباشر ما بنظره من الأعمال بعض قرابته فلم يحسن المباشرة. وما زال ذلك العارض يتزايد. وفي سنة ثلاثٍ وعشرين رجح رفع يده عن الأعمال التي كان يباشرها ثم أحاطت الديون بغالب ما يملكه بسبب مباشرة ذلك القريب. ثم (توفي) إلى رحمة اللَّه يوم السبت خامس عشر شهر شعبان سنة ١٢٢٥ خمسٍ وعشرين ومائتين وألف بصنعاء، وقُبِر بمقبرتها.

(١٣٢)

(الإمام الحَسَن بن عَلي بن دَاود المُؤيِّدي)[١]

رأيت سيرته في مجلّد وصفه مؤلفه بالتبحر في علوم عديدة كالنحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان والأصول والتفسير والفقه والحديث. ورأيت له رسائل تدل على بلاغته وقوة تَصرُّفه. دعا إلى نفسه سنة (٩٨٤) في نصف شهر رمضان منها، فاجتمعت إليه الزيدية، وأجابوا دعوته وبايعوه في بلاد صعدة. وخرج منها بجيشٍ إلى الأهنوم، واشتعلت الأرض ناراً بقيامه على الأتراك، ودخل في طاعته بعض أولاد الإمام شرف الدين. وأسر عبد اللَّه بن المُطهر وأودعه السجن، ثم توجه بجند واسع لأخذ بلاد همدان، ففتح أكثرها، وخرج الأتراك من صنعاء وأميرهم سنان، فما زالتً الحرب بينهما سجالاً. وفي سنة (٩٩٣) افتتح سنان بلاد الأهنوم، وانحصر الإمام الحسن في محلٍّ يقال له الصاب، ودُعِيَ إلى السلم فأجاب، وخرج إلى يد سنان في نصف شهر رمضان منها. وهذا من غرائب الزمان كون قيامه في نصف شهر رمضان، وأسره في نصف شهر رمضان. ثم دخل به سنان إلى صنعاء فوصل به إلى الباشا حسن فسجنه، وقد كان أسر أولاد المطهر بن شرف الدين الأربعة: لطف وعلي يَحْيَى وحفظ اللَّه وغوث الدين، وسجنهم مع الإمام. وفي شهر شوّال من هذه السنة أوصل

(١) ترجمته في: الأعلام: ٢/ ٢٠٤.